من أوراق الرئيس (14)

الجليد .. يذوب: بين موسكو والقاهرة!

كل رسائل موسكو: " عاجلة " بلا مبرر !

عندما طلب الرئيس السادات من السفير السوفيتي أن ينقل إليه ما الذي سوف يفعله القادة السوفيت إذا مصر حاربت .. جاء الرد بطلب مطار عسكري تقف فيه طائرات حربية لنقل الرعايا الروس دون أن يراهم أحد...

فلما اشتعلت الحرب بادر السوفيت بطلب وقف القتال.

وعندما أجاب الرئيس السادات بالرفض جاء كوسيجين نفسه يطلب وقفها فوراً. وتلقى من الرئيس السادات نفس الرفض.. وفي ذلك الوقت أحدث اليهود ثغرة بين قواتنا.وكانت الثغرة ضربة لقلة من الانهزاميين في مصر زادتهم فزعاً. ولكن الرئيس السادات أعلن منذ اللحظة الأولى أن اليهود يكررون ما فعله النازيون في الحرب العالمية في نورماندیا.. وأن الفشل كان مصير الثغرة الألمانية والثغرة اليهودية أيضاً. وبزيارة كيسنجر إلى مصر ازدادت العلاقات المصرية السوفيتية سوءاً. وأنفتح باب الحوار من أجل فك الاشتباك الأول والثاني والسلام في المنطقة...

وفي يوم الأربعاء السابق على المعركة استدعيت السفير السوفيتي وسألته: ما هو موقف الاتحاد السوفيت إذا قمنا بتحريك الموقف عسكريا...!

كان ذلك في بيتي في الجيزة، قبل أن أنتقل إلى قصر الطاهرة.

وكما توقعت تماما بادرني السفير السوفيتي قائلا: ومتى قررتهم هذا التحرك العسكري!

فأجبته: إن التاريخ لم يتحدد بعد. ولكني مع الرئيس حافظ الأسد قد قررنا تحريك الموقف. وأنا أريد أن أعرف بالضبط ما الذي سوف تفعله القيادة السوفيتية. فأرجو إبلاغهم بذلك فوراً. وأنا في انتظار الرد بسرعة... وهذه المرة – أرجوك – يجب أن يكون الرد أسرع من كل مرة !.

وفي يوم الخميس طلب السفير مقابلتي بسرعة.

وقلت لنفسي: إنهم قد أدركوا خطورة الموقف.وصدقوني هذه المرة. إذن لقد فرجت.

وجاءني السفير وسألته: إن شاء الله تكون معك أخبار هامة.

فأجاب: هامة فعلاً..

قلت: خيراً

قال: القادة السوفيت يطلبون التصريح بهبوط أربع طائرات كبيرة لنقل الرعايا السوفيت.

قلت: متى؟..

قال: غداً الجمعة..

قلت: وهل أجابوا على السؤال الذي أرسلته معك؟ .. طبعا أنت أرسلته؟.

قال: نعم أرسلته.

قلت: فماذا كان الرد؟

قال: لا رد.. إن القادة السوفيت يدرسون ويحللون. ولهم رجاء...

قلت: ما هو ؟...

قال: أن تهبط الطائرات الأربع في مطار عسكري حتى لا يشعر أحد من الناس بنزول الطائرات أو صعودها ولا بالرعايا السوفيت.

قلت: موافق تماماً. وليس عندي أي مانع...

وفي يوم الخميس ليلاً انتقلت إلى قصر الطاهرة نهائياً. وهناك أعددت غرفة عمليات كاملة وفيها كل الضباط وعلى اتصال بكل مكان في مصر وعلى أحدث الأساليب العلمية...

وفي يوم السبت نشبت الحرب..

وفي الساعة الثامنة مساء طلب السفير السوفيتي مقابلة عاجلة أي بعد قيام الحرب بست ساعات. وكنت ساعتها في غرفة العمليات. وكنت على وشك أن أترك غرفة العمليات. فالطيران كان قد ضرب ضربته بنجاح. والمدفعية أطلقت فيضاناً من نيرانها بمنتهى النجاح. العبور تحقق بنجاح عظيم. كل شيء قد اتجه إلى قلب العدو وأصابه في الصميم.. إنها لحظات وساعات من أروع ما في العمر كله... عمري وعمر شعبنا والأمة العربية. ولابد أن التاريخ سوف يقف طويلاً عند هذه الساعات. وقد وقف المؤرخون السياسيون والعسكريون أمام هذا الإنجاز العظيم. ويكفي أن نستعرض ما قيل في الصحف وفي المحاضرات وفي الندوات وفي المذاكرات العسكرية. لنرى أبعاد هذا العمل العظيم بجميع المقاييس...

بل إن نجاحنا– وهذه حقيقة يقولها العدو والصديق– كان أضخم ما توقعناه. مع صعوبات عمليات العبور لقناة السويس...وهي أعظم عائق وحائل مائي في كل العصور، في الحروب التي مضت والتي سوف تجيء .

ولو تركت قلمي يصف ما يملأ نفسي ما توقفت عند أي حد.. ولكني أريد أن أكون قريبا من الخط والخطة والإطار التي اتخذتها لهذه الأوراق..

وهنأت الضباط على النجاح العظيم. وتركت غرفة العمليات واتجهت إلى قصر الطاهرة حيث ينتظرني السفير السوفيتي الذي يحمل رسالة عاجلة من القادة السوفيت... لقد اعتدت على "الرسائل العاجلة" هذه .. وهي عادة لا تكون عاجلة بأي معنى. ولكني "عودت عيني" على ذلك.

فلا أنا مللت، ولا هم أيضاً. أو من المفروض ألا أعرف الملل، حتى لا أعرف الغضب. فإذا عرفت الغضب اتخذت قراراً خاطئاً. وهذا ما لا أريد ولا أحب... ولذلك يجب أن أتوقع أن تكون كل رسالة عاجلة، هي عاجلة، وهي رسالة هامة في نفس الوقت.

وفي الريق إلى لقاء السفير السوفيتي .. رحت أفكر بسرعة: ترى ما الذي يتعجله السوفيت.. هل يريدون أن يعرفوا سير القتال وأن يطمئنوا على أن السلاح السوفيتي قد نجحنا في استخدامه.. وفي ذلك انتصار للسلاح السوفيتي على السلاح الأمريكي.. إن حرب أكتوبر هي بداية عظيمة في عصر الوفاق.. ولابد أن يكسب الروس من ورائها شيئاً كثيراً... إنهم كسبوا الكثير بسبب تفوقهم في فيتنام... ثم هذه المرة.. لقد حاربنا اليهود وفي ست ساعات تم لنا أعظم الانتصارات .. فنحن العرب جميعا نستحق التهنئة..

وأحسست أن يدي قد امتدت أمامي وطالت حتى بلغت حدود العالم العربي والإسلامي أهنيء أشقائي وأتلقى تهنئتهم أيضاً.. فلم يكن ذلك انتصاراً لمصر وحدها، وإنما هو انتصار للعرب وبالعرب أيضاً...

ولا أعرف بالضبط ما الذي يريده القادة السوفيت.. ولم أستطع أن أركز تفكيري في أي شيء سوى المعركة الدائرة... وكم من جنود عبروا القناة سالمين تماماً.. وأين أتجهت نيران مدافعنا.. تم ذلك المشهد الذي تمنيت أن أراه بعيني... وهو دخول قواتنا إلى قلب سيناء إلى القنطرة شرق... وكم تمنيت أن أرى خط بارليف يذوب.. تتحول فيه الخرسانة إلى رمال.. وتتحول فيه قضبان الحديد إلى طين.. وأرى اليهود هاربين فارين أو أسرى.. إن أبناءنا قد شربوا العذاب والهوان. وشربوا العار ولم يعتادوا عليه وهم ينظرون إلى الضفة الأخرى من أرضهم وقد ارتفع عليها العلم الإسرائيلي... إنه لشيء رهيب.. ولم يكن هناك شيء أروع من أن يروا أعلام اليهود وقد تهاوت عن أقدامهم...

واستغرقت هذه الصور... اختلطت فيها الأحلام والآمال والامتنان لله سبحانه وتعالى أن نصرني على عدوي، وأن أعزني بنصر من عنده.. ورغم فرحتي بما حدث، فأنا كرجل سياسي، تعلمت أنه لا حدود للاحتمالات... قد تجيء من هنا أو من هناك .. ثم هذا السفير السوفيتي إنه هو أيضاً واحد من هذه الاحتمالات...

ومددت يدي أصافح السفير السوفيتي، ولم يلاحظ هو السعادة على وجهي ولا الارتياح في كلماتي، فهو مشغول بالرسالة التي حملها، كما أنني مشغول بالنصر الذي حققناه وأدعو الله أن يبقيه لنا ويضيف إليه نصراً بعد نصر...

فقلت له: خير إن شاء الله..

قال: رسالة عاجلة من القادة السوفيت.

قلت: ما هي؟

قال: وقف إطلاق النار!.

قلت: هم يطلبون وقف إطلاق النار؟

قال: نعم.

قلت: هل القادة السوفيت عندهم فكرة عن النار التي يريدون وقفها؟

قال: لا أعرف.

قلت: تحب أن تعرف؟

قال: إنهم يطلبون وقف إطلاق النار.

قلت: إنهم يطلبون. قل لهم إنني أرفض ما يطلبون.

قال: إنهم يطلبون ويلحون.

قلت: وأنا أرفض بإلحاح أيضا... ثم أين الإجابة على السؤال؟. قال: أي سؤال؟.

قلت: ألم أكلفك بأن تنقل للقادة السوفيت ما الذي سيفعلونه إذا تحــرك الموقــف عسكريا... وقد تحرك الموقف ولم يتحرك القادة السوفيت وعندما تحركوا طلبوا مني أن أتحرك ... هل هذا ما يريدون.

قال: إنهم يطلبون وقف إطلاق النار .

قلت: لن أوقف إطلاق النار . ثم أنني مازلت في انتظار إجابتهم. فأطلب إلــيهم ذلك وليكن هذا الطلب على شكل رسالة عاجلة...

قال: إنهم يطلبون وقف إطلاق النار..

قلت: لن يوقف إطلاق النار حتى يتحقق الهدف.

قال: وما هو الهدف؟

قلت: أن تصل قواتنا إلى المضايق.. إنها معركة محدودة.

هل تعرف لماذا؟

قال: لماذا؟

قلت: لأن القيادة السوفيتية لم تعطني من السلاح ما يجعلني أتحرك أكثــر مــن المضايق.. أو إلى ما وراء المضايق بقليل...

خرج الرجل ولابد أنه قد أبلغ القادة بكل ما دار بيني وبينه..

وعدت إلى غرفة العمليات وفي أذني صوت الطــائرات والمــدافع وصــيحات الجنود ودعواتهم إلى الله وشكل الجسور وفوقها الدبابات والــدخان يلــف اســتحكامات بارليف... وحيرتي بين أن أبقى في القيادة وأن أسارع إلى الجبهة كــأي جنــدي لأرى وأملأ العين والقلب بأعظم إنجازات قواتنا المسلحة.. تمنيت أن أعبىء روحي بكل ذلك، فليس في عمر الإنسان ولا الشعوب لحظات أو ساعات مثل هذه الساعات المجيدة...

وتذكرت حواراً دار بيني وبين الملك فيصل الله يرحمه. كان ذلك في شهر أغسطس... وكان هذا الرجل هو حكمة التاريخ.. كان نموذجاً للهدوء والصفاء والأصالة. لقد وهبه الله حسن الإدراك، ونبل الشعور، وبعد النظر.

قلت: سوف نحارب اليهود بإذن الله.. وقد اتفقت مع الرئيس حافظ الأسد على ذلك.

ورفع الرجل رأسه في السماء ودعا الله لنا بالنصر، ثم قال: لي طلب وحيد. وهو إذا قمتم بحرب فلا توقفوها بعد ساعات أو أيام قليلة. اجعلوها معركة طويلة. فإذا طالت استطعنا أن نبني عليها موقفاً عربياً موحداً...

لا أنسى هذه العبارة. إنها عبارة في منتهى الحكمة. إن الإنسان يستطيع أن يؤلف عنها كتبا في السياسة والاستراتيجية .. إنها حكمة هذا الرجل قد أودعها هذه العبارة القصيرة. إنني لا أزال أتخيل هذا الرجل. ولا تزال كلماته الهادئة الهامسة ترن في أذني. لقد كانت وفاة الرجل خسارة بالغة للأمة العربية.

وقد ظن بعض الناس أنني طلبت إلى الملك فيصل أن يساعدنا بالبترول . أبداً.

وكل ما قلته للملك فيصل هو: أن علينا أن نحرك الموقف عسكرياً.. ونحارب.. أما دورك أنت فإنني أتركه لك. فأفعل ما تشاء وما تقدر عليه.

وقلت له بالحرف الواحد : أنت رب البيت. ورب البيت أدرى بما فيه ومن فيه!.

ولم يكن الملك فيصل في حاجة إلى أن أقول له أكثر من ذلك. فهو رجل حكيم عظيم. وقد أدرك كل شيء بذكائه وفطنته..

وعدت للحوار الذي دار بيني وبين السفير السوفيتي الذي جاء يطلب وقف إطلاق النار.. ثم ساق سبباً غريبا وهو أن سوريا قد وافقت على وقف إطلاق النار. يعني أن الرئيس حافظ الأسد قد قرر منفرداً وقف إطلاق النار. وسألت حافظ الأسد فأنكر ذلك تماما.

وفي يوم 7 أكتوبر، أي يوم الأحد وفي نفس الموعد جاء السفير السوفيتي ينقل لي رسالة عاجلة: إن القادة السوفيت يطلبون وقف إطلاق النار.

قلت: عندي إجابة عاجلة رداً على الرسالة العاجلة: لا !

وبدأ الكوبري الجوي بين موسكو والقاهرة وتفاصيل الكوبري الجوي والذخائر التي حملها إلينا معروفة بكل تفاصيلها. أما هذا الكوبري الجوي فلم يكن ينقل إلينا إلا الأسلحة التي وعدوا جمال عبد الناصر بها .. ثم عاقبوه بوقفها لأنه بدأ حرب الاستنزاف ضد إسرائيل... وكان الغرض من هذا العقاب أن يستنزفوه هو .. أن يسيلوا دمه وعرقه ودمعه وطاقة جنوده، حتى يكف عن الحركة... ويقبل الأمر الواقع. وأن يبقى الجنود على الضفة الغربية من القناة، وأمامهم العدو... ثم يعتادوا على ذلك.. أي على الأمر الواقع!..

وقد شكوت كثيرا من قلة الذخائر، بينما يكدسون الذخائر في سوريا مما دعاني إلى أن أطلب سلاحاً من سوريا. وقد أعطوني. أما الأسلحة التي كان يبعث بها السوفيت إلينا فهي قديمة... ومن الحرب العالمية الثانية توا.

وفي يوم 12 أكتوبر أيقظني السفير البريطاني.. يحمل رسالة من ادوارد هيث رئيس الوزارة البريطانية وجاءني السفير البريطاني عند الفجر.

وسألته: ماذا عندك؟

قال: رسالة هامة من رئيس الوزراء...

قلت: ما هي؟

قال: إن كيسنجر وزير خارجية أمريكا قد اتصل بمستر هيث وأخبره أن السوفيت قد نقلوا إليه أن مصر وافقت على وقف إطلاق النار. ولما كانت العلاقات بينكم وبين الأمريكان مقطوعة فقد طلب كيسنجر من حكومتنا أن تتأكد من صحة هذا

النبأ .. لأنه إذا كان صحيحاً فسوف يتحرك كيسنجر بناء على ذلك. فهل وافقتم على وقف إطلاق النار كما يقول السوفيت؟.

قلت: لم نوافق على وقف إطلاق النار.

ثم رويت له محاولات السوفيت لوقف إطلاق النار وإشاعة ذلك. وقلت له أيضاً أننا لن نوقف القتال إلا بعد تحقق الأهداف.

فسألني السفير البريطاني: ما هي الأهداف؟.

قلت: ل، أعلنها إلا بعد أن تتحقق..

وخرج السفير ونقل ما دار بيننا إلى رئيس الوزراء الذي نقله إلى كيسنجر...

وأبلغنا السفير السوفيتي أن كوسيجين سوف يجيء إلى مصر في زيارة، قلت: أهلا وسهلا يا مرحبا...

وكان الهدف من زيارة كوسيجين شيئاً واحدا: وقف إطلاق النار!

هو يقول: أوقفوا النار!.

وأنا أقول: لن أوقف النار..

وهو يقول: ليس من مصلحتكم الاستمرار في القتال.

وأنا أقول : بل مصلحتنا أن نستمر.

وهو يقول: أنتم لا تعرفون الحرب.

وأنا أقول: هذه فرصتنا لكي نعرف.

وهو يقول: جربنا الحروب وشربنا المر...

وأنا أقول: نحن شربنا المر، ولذلك يجب أن نجرب حلاوة النصر..

أوقفوا القتال!..

بعد المضايق!..

وفي أثناء وجوده في مصر وقعت "الثغرة" ... أي تسللت القوات الإسرائيلية إلى الضفة الشرقية في فجوة بين الجيوش.. وهي غلطة عسكرية مشهورة في التاريخ. ولكن كثيراً ما حدث ذلك. ويعتبرها العسكريون عملاً انتحارياً فاشلا. فقد جربها الألمان في الحرب العالمية الثانية. في موقعة الأردن عندما فتحوا طريقا عنيفة دمويا بين قوات الحلفاء وهذا الذي فعله النازيون، كرره اليهود .. فهم يقلدونهم في كل شيء في الدعاية والكذب وفي غطرسة الحروب الهتلرية، ولذلك محكوم عليها بالفشل... لأنها حركة بهلوانية واستعراض تليفزيوني فاشل.. وهو يذكرنا بما يحدث في الأفلام: عندما يقوم اللصوص بسرقة البنوك أو المتاحف أو عندما يهرب السجناء في لحظة معروفة وهي لحظة "تغيير الحرس".. في هذه اللحظة عندما يجيء حرس ليستلم العمل من حرس مرهق.. في هذه اللحظة ينجح اللصوص في دخول البنوك والمتاحف، ويحاول السجناء أن يهربوا من السجن.. وقد فعل اليهود ذلك..

ولم تضعف قواتنا ولم يتخاذل رجالنا. ولم يفسد ذلك من النصر العظيم الذي حققناه. فالذي حدث لا يمكن تغييره. والموت أهون من أي استسلام بعد ذلك. ولا استسلام بعد ذلك..

وكانت هذه "الثغرة" مأساة خلقية لكثير من الانهزاميين في مصر.. الذين نسوا ما أنجزته قواتنا الباسلة في عبورها وصمودها وزحفها واستشهادها. كل ذلك نسيه الانهزاميون، ولم يعودوا يذكرون إلا هذا التسلل اليهودي الدنيء، بقصد تحطيم المعنويات، وبقصد تأكيد الخرافة الإسرائيلية: أن الجندي اليهودي ولد لينتصر دائماً، والجندي المصري ولد لينهزم دائما.. وقد انهزم!.

طبعا لم ينهزم.. وإنما الذي أنهزم أناس مهزومون ودعاة هزيمة. ولكن أشهد الله وللتاريخ أن 95% من شعب مصر، من هذه القاعدة الشعبية ظلت في صلابة الحديد. وقفت ورائي. وصدقتني، وتمسكت بروحها العالية. وسخرت من هذه القلة التي انهزمت

سنة 1967 ولا تريد أن ترفع رأسها، فإذا حاولت قواتنا أن ترفع لها الرأس، عادت هذه القلة الانهزامية فأحنت رأسها وكرامتها، ثم راحت تمتص الهزيمة من جديد... ولكن هذه القلة لا تهم ولا تدخل في الحساب.

وإنما شعبنا العظيم العريق هو الذي يهم. إنه شعب علمته الحياة الصبر، والاحتمال والفطنة. وقد علمته فطرته أن يفهم ويحسن التقدير. فهو أعظم وأصدق وأحكم من كل الذين احترفوا السياسة وتاجروا بمشاعره ولعبوا بها.. إن هذه القاعدة العظيمة من شعبنا، لم تهزها هذه الثغرة .آمنت من أول لحظة أن هذه الثغرة سوف تنسد وسوف تنسحب قوات اليهود إلى غير رجعة.. وأن هذه القوات التي اختارت لنفسها أن تدخل عمق مصر محاصرة بين جيوشها شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، لا يمكن أن تحتمل هذا المأزق طوى . وقد صح ما توقعه الشعب . فزالت الثغرة، ومعها أسطورة الأمن الإسرائيلي والجندي الإسرائيلي. وتلاشى من الصورة كل فئران الهزيمة.!

وبقى كوسيجين في مصر أربعة أيام. وبعدها عاد إلى موسكو وفي أذنه عبارة واحدة: إني لن أوقف النار... وفي أذني عبارة واحدة: أوقف النار...

ولا بد أن كوسيجين قد عاد غاضباً فلم يسترح إلى ما دار بيننا.. ولا أنا استرحت إلى ما الذي قاله. ولم أتوقع منه شيئاً كبيرا. فهم لا يثقون في قدراتنا على القتال. ويخشون في نفس الوقت إن دخلنا الحرب أن نورطهم معنا. وأن نورطهم مع أمريكا، وخصوصاً أن روسيا وأمريكا في حالة وفاق.

ويريدون أن يظل هذا الوفاق طويلا. ولا يريدون أن نفسد هذا الوفاق، ولا أن نضطرهم إلى مواجهة عسكرية مع أمريكا. ولست ضد الوفاق. ولكني ضد فرض السلام بالقوة. بقوة السلاح أو بقوة الأمر الواقع. ونظرية السلام بالقوة هي نظرية بن جوريون. فقد كان من رأيه : أن العرب إذا لم يريدوا السلام باختيارهم فرضناه عليهم!.

ثم لابد أن أكون صريحاً واضحاً مع نفسي. ففي القاموس السياسي كلمات كثيرة جداً غير واضحة. ولكن الساسة يعلبون علـــى الغمـــوض.. أي يســـتغلون الغمـــوض لصالحهم... ويكون هذا الغموض كالسحب التي تطلقها السفن حتى لا تعرف الطائرات موضعها بالضبط... أي أن هذا الغموض نوع من الكاموفلاج. أي نوع من التعميـــة أو التمويه.. ومن بين هذه الكلمات التي تجلس على عرش الغموض كلمة: الصداقة..!

وبصراحة شديدة جداً، دون أسف، ليست هناك صداقة بين دولة كبيـــرة ودولـــة صغيرة.. هناك مصالح.

ولا توجد صداقة دائمة، وإنما توجد مصالح دائمة.. فالصداقة لا تـــدوم، ولكـــن المصالح المتبادلة هي التي تدوم!.

وتشرشل هو الذي قال أثناء الحرب العالمية الثانية: من الذي يستطيع أن يتنبـــأ بما سوف يفعله الروس.. إنهم لغز ملفوف في فزورة ملفوفة في معضلة، والمعضلة في صندوق له مفتاح والمفتاح في روسيا. والمفتاح اسمه المصلحة الوطنية!

وليست كلمة الصداقة إلا إحدى الكلمات الوطنية في قاموس كبير!

ثم سافر كوسيجين وكلماته ما تزال في أذني. هـــو يقـــول: إن الثغـــرة عمليـــة عسكرية خطيرة.

وأنا أقول له: ليست خطيرة إلى هذه الدرجة... إنها حركة بهلوانية .. وســـوف ترى.

ويؤكد كوسيجين: أنها أخطر مما أتصور.. وأن الأمور ليست بهذه السهولة!

والتاريخ يحكم بيننا الآن: صحيح أن الأمور ليست بهذه السهولة. فلا شيء سهل في العلاقات الدولية المعقدة.

وخصوصا إذا كانت الحرب إحدى وسائل لحلها. ولكن أين ذهبت الثغرة؟ وأين نقف نحن؟. وأين يقف اليهود؟

وفي يوم 19 أكتوبر تدخلت أمريكا. وأعلنت ذلك. فقد تعهدت لإسرائيل بحفظ توازن القوى في الشرق الأوسط... توازن قواها وقوانا. ومفهوم التوازن عند الأمريكان أن تكون إسرائيل أكثر تفوقا. وكان التدخل الأمريكي بأسلحة متطورة جدا لم يستخدمها الجيش الأمريكي بأسلحة متطورة جدا لم يستخدمها الجيش الأمريكي بعد. فقد أتوا بالقنابل التليفزيونية، والقنابل المضادة للدروع. وانفتحت الترسانة الأمريكية ونقلت إلى إسرائيل كل ما تحتاج إليه وأكثر. ونزلت الدبابات من الطائرات إلى القتال مباشرة...

وأعلنت أن للعالم كله أنني مستعد أن أحارب إسرائيل، ولكني غير مستعد أن أحارب أمريكا.. فأنا أمين على الشعب المصري وقواتي المسلحة. ولن أسمح بأن يؤدي التدخل الأمريكي إلى كارثة في مصر. ووافقت على إطلاق النار. وأرسلت إلى الاتحاد السوفيتي لكي يخبر أمريكا. وكان قد تقرر أن يقوم كيسنجر بزيارة الاتحاد السوفيتي في لايوم التالي لوقف إطلاق النار يوم 23 أكتوبر.

أوقف إطلاق النار يوم 22 أكتوبر الساعة السابعة مساء وخرقت إسرائيل وقف إطلاق النار بهدف الاستيلاء على الإسماعيلية والسويس في فترة استرخائنا العسكري. فلا هم استولوا على الإسماعيلية ولا دخلوا السويس. وإنما تسللوا ثم وقفوا على مشارفها. ورغم أنها مهجورة فلم يفلحوا في أن يدخلوها. واحترق جنودهم وتحطمت لهم 12 دبابة. وكانت معركة السويس والتحام الشعب والجيش والشرطة ضد اليهود من أروع الأعمال البطولية..

ومن يعد إلى قراءة ما كتب عن الثغرة – أو ما كتبه اليهود بصفة خاصة – يجد أنهم قد طبلوا وزمروا كثيرا جدا .. وقالوا أن موسى – موسى ديان – قد عاد فدخل مصر، ونسوا أن موسى ديان يحتل أرضا مصرية منذ 1967 ... وكأنهم أرادوا أن يوهموا الناس أن سيناء لست مصر.. وإنما مصر هي الضفة الشرقية والمواقع التي احتولها وادعوا أنها تبعد عن القاهرة 50 ميلا.. بأن إنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك عندما جاءت مسز مائير رئيسة الوزراء إلى السويس وصوروها إلى جانب أحد مستودعات البترول. وكل هذا صحيح . ولكن ماذا كانت النتيجة؟

النتيجة كما توقعت أن الثغرة اختفت. تلاشت. وكان لابد لهذه الحركة المسرحية أن تختفي من مسرح العمليات الحربية. .. أنها عملية دعائية لمواجهة الفضيحة العالمية والغليان في كل بيت في إسرائيل. في ذلك الوقت وحتى هذا اليوم. ويكفي أن تقرأ ما كتبه العسكريون اليهود عن حرب "يوم كيبور" أي يوم الغفران...

وما كتبته مسز مائير نفسها وكيف أنها بكت.. ثم كيف انهار الجنرالات وراحوا يعلقون المشانق لبعضهم البعض.. وكيف أن الثغرة هذه كانت نوعا من الخداع القومي، لا أكثر ولا أقل!.

أو ما جاء في التحقيق الذي أجراه القاضي " إجرانات" .. إن هذا التحقيق صورة مؤلمة لكل يهودي. وفيه إدانة للقيادة.. وفيه اعتراف بالمعجزة العسكرية المصرية... وكل ذلك منشور في العالم وبعشرات اللغات. ولم يعد سرا خافيا علينا أو عليهم. ولكن التاريخ لن يترك حرب أكتوبر، وإنما سوف يتوقف عندها كثيرا وطويلا وعميقا. لأن الدروس المستفادة لا يمكن إخفاؤها. وبشهادة أعدائنا أيضاً.

ولقد قلبت في الكتاب الذي طبع في تل أبيب بعنوان "وجهات نظر عسكرية في الصراع العربي الإسرائيلي". وهو يضم مناقشات ندوة عقدت في القدس فيما بين 12 و 17 أكتوبر سنة 1975. الندوة موجزة. والعبارات خاطفة. والأحكام في غاية الحذر. والمتحدثون يخافون أن يدينوا إسرائيل إدانة كاملة. ولكنهم في نفس الوقت يقيمون التكريم لقواتنا المسلحة، ويتلمسون الأعذار لأنفسهم.. ولكن الندم وخيبة الأمل والصدمة العنيفة هي الجو العام الذي يتنفسه الجميع. ويكفينا ذلك شرفا عظيما على مدى التاريخ...

ولا أقول إن ما كتبه موشى عن حرب أكتوبر شيء يستحق التقدير. فهو القائد الذي قضت عليه هذه الحرب نهائياً ومسحت به أرض سيناء وأغرقته في قناة السويس ودفنته في خط بارليف... إلى غير رجعة... وما كتبه عن حرب أكتوبر هو مزيج من الفشل والمرارة وخيبة الأمل وبقايا الغطرسة والرعونة... وكلها قد أصبحت مثل باقة

من الشوك على نعش القائد الذي أدعى أنه على رأس جيش لا يقهر. وما كتبه موسى ديان وهو كاتب سيئ العبارة، لا يخلو من اعتراف صريح بعظمة المقاتل المصري وروعة التخطيط وفداحة المفاجأة.. وقد اعترف موسى ديان أن أكبر مفاجأة في هذه الحرب: أن المصريين قد حاربوا حتى النصر. وأنهم قد استوعبوا السلاح الحديث والاستراتيجية الحديثة.. وأنهم بعد أن ذاقوا لذة النصر، فلن يعرفوا الهزيمة!.

إن عبارة مثل هذه من قائد مزقته المرارة، وتكاثر عليه الجنرالات والقضاة والساسة حتى أسقطوه، والضحية الأولى لحرب أكتوبر، إن مثل هذه العبارة لا تجيء هكذا بسهولة... إن القراء اليهود الذين رأوا الموت وعرفوا العار هم الذين أرغموه على أن يقول الحق، بعض الحق.. لأنه لا يستطيع أن يقول كل الحق.. ذلك ما سوف يرويه التاريخ!.

وجاءنا د. كيسنجر وزير خارجية أمريكا... وبمجيء د. كيسنجر تنفتح صفحة جديدة تماماً.

وإذا كانت سحب من الضباب قد تكثفت في سماوات العلاقات المصرية السوفيتية، فإن زيارة كيسنجر قد أضافت إلى السحاب الأسود عواصف رعدية شديدة...

وإذا كان لدى السوفيت شك في نيات مصر وقيادة مصر، فإن هذه الزيارة قد جعلت الشك يقينا، والوهم حقيقة.

وإذا كان لدى السوفيت أدنى شك في أن علاقة ما كانت بيني وبين الأمريكان يوم قررت طرد الخبراء السوفيت، فإن زيارة كيسنجر هذه قد أكدت لديهم كل شيء..

والمعنى هو: أنني اتفقت مع الأمريكان عليهم!!

كيف وصلوا إلى هذه النتيجة الخاطئة؟ لا أحد يعرف ولا أنا عرفت حتى اليوم.

ومنذ زيارة كيسنجر هذه في شهر نوفمبر ونحن نمشي في عملية السلام. وبهذه الزيارة تغير موقف السوفيت تماما. وانقطعت الصلة.. أو شيء ما انقطع بيننا وبين

السوفيت. فقد غضب السوفيت من أشياء كثيرة، وليس لهم أدنى حق في هذا الغضب. وآخر ما أغضبهم أن يجيء كيسنجر إلى مصر. وأن أجتمع به ساعات. والذي أغضب السوفيت أن ألتقي به دون إذن منهم. أي أنه كان من المفروض أن أستأذن: هل أقابل وزير خارجية إحدى الدولتين العظميين.. أو وزير خارجية الدولة التي تساند الدولة التي تحاربني وتحتل أرضي. الدولة التي تمد إسرائيل بالرغيف والصاروخ معا .. الدولة القادرة على الضغط عليها من أجل السلام في الشرق الأوسط ومن أجل الحفاظ على مصالحها البترولية وأسواقها في كل المنطقة...

طبعا لم أوافق لم استئذان الاتحاد السوفيتي. ولم أوافق قبل ذلك. ولن أوافق في أي وقت.

ورأيت مع كيسنجر أسلوباً آخر في السياسة وفي التعامل. فهذا الرجل كيسنجر لم يكذب في شيء واحد قاله. ولم يخلف وعدا. ولم يعد بشيء واحد لم يستطع الوفاء به. ما من مرة استدعيته إلا حضر...

وبدأنا في لقاءات الكيلو 101 مع اليهود تحت علم الأمم المتحدة. وقد حدث لقاء العرب واليهود في هدنة 1949. ويحدث ذلك في كل اتفاقيات الهدنة. وهذا إجراء عادي جداً...

وفك الاشتباك الأول والثاني....

وساءت العلاقات المصرية السوفيتية، وتعقدت وتعكرت مياه البحرين الأحمر والأبيض وأطلقوا سحب الشك في كل سماء عربية، في الشرق والغرب والجنوب..

ولكني توجهت مباشرة إلى أمريكا.. الدولة القادرة على أن تحل وتربط .. أن تحل عقد القضية وأن تربط خيوط السلام في المنطقة...

نقلب في بقية الأوراق .. في الأسبوع القادم إن شاء الله